وحـــدة الوجود

للبروفيسور ج . ا . بورد

بقلم الأستاذ عثمان حلمي

لكي نقترب من قضية العلم الحديثة الخاصة بنظام الكون يجدر بنا أن نرجع إلى أولئك المخترعين العظام الذين ألمّوا بعلم الميكانيكا أمثال جاليلو وديكارت ونيوتون ، وعلى الأخص « نيوتون » أعظمهم جميعاً .

هؤلاء المفكرون لم يكونوا ضيق الأفق فى تفكيرهم ، ولا كانوا محدودى التفكير (كأولئك الذين لم يخرجوا عن دائرتهم المحدودة ، فلم يصلوا بسبب بين فلسفتهم وعلمهم وبين دينهم) . ذلك أنهم واجهوا هذه المسألة كاملة واشتغلوا (بالتدين الطبيعى) فكانوا بذلك رجالاً كاملين فى تفكيرهم ، بينما كان أتباعهم انصافاً . فلو أنهم لزموهم ذكر الخالق ومواجهة حقيقته ، لفهم الطبيعة وإدراك أسرارها ، فإنهم لا يحجمون عن ذكره فى علومهم .

لقد قيل : إن بحث نيوتون فيما وراء الطبيعة كان غير ناضج ومبايناً لما هو معهودٍ فى طبيعة علمه . والحقيقة أن نيوتون لم يكن فيلسوفاً — بمعنى الكلمة — ولكن تقاليد الفلسفة الأفلاطونية للعصور الوسطى التى جاراها فى كامبردج فى أيامه ، هى قريبة للعبقرية العلمية أكثر منها للفلسفة السفسطائية التى تلت نيوتون .

لقد كان فى وسع هذه التقاليد أن تعترف بميلاد العلم الحديث والإدراك الميكانيكي والرياضى الذى ساق أمامه آياته القابلة للتصديق مع علاقته بهذه التقاليد .

إن الدنيا فى نظر نيوتون غير مفهومة المغزى بغير وجود « الله » ، وعلى ذلك ، فإنه لا يحجم عن ذكر الله فى طبيعياته وفلكه ، وهو يوضح لنا فكرته فى الله من الصفات التى يصفه بها : كالأبدية ، والأزلية ، والقدرة على كل شىء ، والعلم بكل شىء ... وهى صفات مستعارة من علم اللاهوت فى العصور الوسطى ، غير أن القدرة على كل شىء من وجهة نظر نيوتون لها معناها الطبيعى المادى ، كما لها معناها الروحى .

(هو قادر على كل شىء ، ليس نظرياً فقط . ولكن مادياً أيضاً ، لأن الفاعلية لا تعيش فى رأيه ولا تستمر بغير المادية ، فمنه — كما يقول نيوتون — تتكون كل الأشياء وتتحرك ، ومع ذلك فهى لا تؤثر فيه ، وهو لا يؤوده شىء من حركة الأجسام ، كما أن الأجسام لا تقوى على مقاومة قدرته على كل شىء) .

وبذلك فإن وجود الله الأكبر ضرورى ، ويمثل هذه الضرورة هو موجود أبداً وفى كل مكان ، فهو يرى ، لا كما نرى ، ويسمع ، لا كما نسمع ، ويعقل ، لا كما نعقل ، ويريد ، لا كما نريد ، أى بحال ليست بالمرة كمال الإنسان ، بل بحال يعجز العقل البشرى عن إدراك كنهها .

إن المرء ليعجب إذن كيف يمكن وصف الله (فى الدراسات الفلسفية) ، ولكن فهم نيوتون الحقيقى لله هو قريب الشبه من طبيعيات أفلاطون السابقة أكثر منها للتعاليم المدرسية اللاهوتية ، فهو يقول نفس ما قاله اكسينوفانس .

فنيوتون ليس أكثر من أنشتين ، لا يعتقد (فى الحركة مع الحيز) ، فإن الجاذبية فى نظر نيوتون ناشئة عن النواميس الرياضية ، أى أنها لا توجد فى أصل الأجسام .

وفى نظر نيوتون ، كما هو فى نظر أنشتين ، أن الحركة فى الأجسام (الأفلاك والأجرام والكواكب) مثلاً يشترط فيها الحيز ، ولكن الحيز ليس هو الفضاء المجرد الذى ورد فى العلم الحديث .

فلماذا إذن وجد نيوتون أنه من الضرورى ذكر الله فى العلم ، يوجد السبب العام وهو « حبّه للجمال » هذا الجمال الذى أثر فى أفلاطون بقوته فرآه فى (البساطة والنظام) ، هذا الجمال الذى غمر الطبيعة فجعله يعجب بها أيما إعجاب ويجلها كل

الإجلال ، وقد كان ذلك أيضا بالنسبة لنيوتون مضافا إليه الأسباب الخاصة بما شاهده في تجاربه الميكانيكية والرياضة ، فالنواميس الميكانيكية للطبيعة ليست كافية لحصر منشأ الدنيا ولا لحفظ توازنها ، ولو أن الكائن يحتاج في تكوينه بهذه القوانين إلى أحقاب عديدة ، فإن الأساس المادي هو « قوة الاستمرار » فالحركة تابعة للمادة إذا تحركت ، و « قوة الاستمرار » هي مبدأ سلبي بموجبه تثابر الأجسام على حركتها وإلا فإنها تقف لتستمد الحركة المناسبة لقوة الدفع لها فتقاوم بقدر ما تقاوم وبهذا المبدأ فقط لن تكون هناك حركة في العالم ، فقد تكون الأجسام في وضع ضروري لحركتها فينشأ وضع وهي في حركتها يعكس هذه الحركة ، ومن مختلف الوضعين في الحركتين يتضح أنه من المحتم وجود الكم من قوة الدفع في العالم » .

إذن هو يرى أن الحركة قد تكتسب أو تنعدم إذ يقول : ولكن بسبب تماسك الأجسام السائلة ومجموعة أجزائها وضعف المرونة في الأجسام الصلبة فإن الحركة أكثر عرضة للفقد من الاكتساب وهي دائما عرضة للاضمحلال والانحلال والانثلاثي

هنا يقرر نيوتون بمفرده حقيقة التعويض الداخلي لمثل هذا الفقد ، فيظن أنه ربما كان ذلك آتيا من أرواح أثيرية ، فتتكاثف هذه الأرواح من الله إلى « مادة » وتسد النقص في الحركة ، وهنا يأتي نيوتون ضوءاً على نظرية النشاط الإشعاعي وأنه قد يتحول إلى نشاط مادي ، وأن هذا الخلق وإعادة تجديده تأخذ محلا (في الله) الذي يصفه (بالقوة التي تعيش أبداً والتي توجد في كل مكان قادرة بإرادتها على أن تحرك الأجسام بوعيها الذي لا يحد ، وعلى ذلك فإنها تكوّن وتُعيد تكوين أجزاء الوجود بإرادة لا كما نعمل بإرادتنا في تحريك أجسامنا ، ومع كل هذا فإننا لا نستطيع أن نقول إن العالم كجسم لله أو أن أجزاءه المتعددة كأجزاء متعددة له .

(يتبع)

محمد عبد الله مهني

ظهر أخيرا كتاب

من يوميات محام

للأستاذ

عبد الحسن الزيات

المحامي

كتاب يجمع نحواً من مائة يومية تؤلف صوراً حميمة من الحياة النفسية والمهنية للمحامي ، وخواطر نقادة في المحاماة ، وما يتصل بها من قضايا وقضاء وفقه واشتراع وأدب واجتماع

كتبت في مختلف الزمان والمكان ، ومتنوع المناسبات ، وأحدثها مناسبة المؤتمر الأول للمحامين العرب بدمشق

ثمن النسخة خمسة وأربعون قرشاً صاغا مصريا

يطلب من مكتب المؤلف بشارع إبراهيم باشا رقم ١٠ بعابدين بالقاهرة ومن المكتبات الشهيرة